

# وهم "سبق الرؤية" أو ظاهرة الـ "ديجافو"

مصطلح الـ "ديجافو Déjà vu" استخدمه لأول مرة الفيلسوف الفرنسي "أميل بواريك" في كتابه الموسوم "مستقبل العلوم النفسية" ويعني هذا المصطلح باللغة الفرنسية "شاهد من قبل"، حيث يصف حالة شعور المرء وإدراكه وهو أمام حدث أو مكان أو شخص أو حوار أو موقف يشهده أو يشاهده لأول مرة لكنه يعتقد بأنه شاهد أو عايش ذلك من قبل. قد ترداد هذه الحالة المرء مرة واحدة في حياته أو قد يتكرر حدوثها لعدة مرات، وتحصل على أقل تقدير لدى ثلثي البشر. تفسير ميكانيكية حصول هذه الظاهرة وأسباب حدوثها غير متفق عليه عند المفسرين والباحثين كونها ظاهرة خارقة وغريبة. كما هو الحال أمام الظواهر الخارقة التي تحصل عند الإنسان فإن باب التأويل والتفسير تبقى واسعة، فكل يفسرها من منطق إيمانه واعتقاده واختصاصه، فمنهم من فسرها دينياً وروحانياً ومنهم من فسرها فلسفياً واستنتاجياً، كما إنها فسرت



د. محمد مسلم الحسيني

أستاذ في علم الأمراض

مستشفى براكوبس الجامعي - بروكسل

قطعا علمياً على أساس طبي أو نفسي، غير أن الكثير من هذه التفسيرات تبعد عن عين الصواب والحقيقة. الأمثلة على كيفية حصول هذه الحالة أو الظاهرة كثيرة ومتنوعة حيث لا بد من إعطاء نموذج عنها كي تتضح الرؤيا أمام من لم تحصل لديه هذه الحالة من قبل. على سبيل المثال وليس الحصر، حينما يكون المرء في مكان يزوره لأول مرة كأن يكون مكان نزهة أو مقهى أو مسرح أو حديقة حيوان أو ملعب كرة أو دار عبادة أو غير ذلك، فيشعر وكأنه يعرف هذا المكان بل قد زاره من قبل، والحقيقة هي ليست كذلك. ينطبق السيناريو هذا نفسه لدى من يشهد لأول مرة حدث أو موقف أو حالة أو نقاش أو استماع أو تعرف على شخص، فيشعر وكأنه شهد أو شاهد ذلك من قبل، حيث تمتزج عادة مشاعر العجب والدهشة مع هذا التصور. المؤمنون بعمق تناسخ الأرواح أو الحياة في الدنيا بعد الموت أو ما يسمى بـ "الوجود الدوري Reincarnation"

يعتبرون ظاهرة الـديجافو برهان وتأكيد على صحة معتقدتهم الذي يقول بأن الروح حينما تخرج من الجسد بعد الموت تلج في جسد آخر وقد تحمل معها بعض ذكريات الحياة السابقة. فحينما تتكرر المواقف بين الحياة السابقة وحياة الحاضر تستعيد الروح ذكرياتها فيشعر المرء بوهيم "سبق الرؤية أو سبق المعرفة". فلسفة عودة الروح هي فلسفة قديمة حديثة تبنتها الأديان السومرية والمصرية واليونانية القديمة في السابق والأديان البوذية والهندية وغيرها في يومنا هذا. بغض النظر عن صحة أو بطلان هذا المعتقد فإن الروح العائدة إلى جسد جديد لا يمكن أن تصحب ذكريات وأحداث الماضي معها. الروح طاقة مجردة عن الذكريات حيث أن الذكريات خاصية من خصائص الدماغ لأنها مخزونة فيه وحينما تترك الروح الجسد تترك الدماغ معه وهو أشبه ما يكون بـ "الحاسوب"، فكيف تتذكر الروح أحداث الماضي وحاسوب الذكريات ليس معها ؟!

هناك تفسيرات روحانية ودينية أخرى لهذه الظاهرة منها ما ينسلخ عن حدود العقلانية والمنطق لا أريد الخوض في تفاصيلها، كما أن هناك آراء لباحثين وأطباء ومختصين تتباين الرؤى فيها قد لا يحمل أي منها البرهان الدامغ على صحتها. فمن الأطباء النفسيين ما يجعل لهذه الظاهرة صلة وارتباط بأمراض نفسية معينة مثل مرض القلق النفسي واختلال الشخصية وكذلك مرض فصام الشخصية أو ما يسمى بـ "السكيزوفرنيا Schizophrenia"، غير أنهم عجزوا عن إعطاء صلة بايولوجية واضحة على ذلك. كما أن بعض الباحثين يرى بأن خصائص الدماغ التشريحية واختلاف المواقع بين فصي الدماغ الأيمن والأيسر يجعل إمكانات متفاوتة ورود المعلومات إلى الدماغ عملية ممكنة، وهم أيضاً يفتقرون للحجة المقنعة لذلك. ومن الباحثين أيضاً ما يرى بأن الأحلام أثناء النوم قد تكسب الدماغ معرفة كامنة تتبلور وتنبعث حينما تتشابه المشاهد بين الواقع وبين المعلومة المخزونة أثناء النوم. كما أن تشابه الصور والأحداث بين المعلومات المخزونة في الدماغ والمتأتية من خلال قراءة القصص أو مشاهدة الأفلام في السينما أو التلفاز قد تكون سبب في حصول ظاهرة الـديجافو. كل هذه التفسيرات تفتقد إلى الحجة المقبولة التي تستطيع أن تقنع على أساس علمي مدعوم بالأدلة.

التفسير العلمي الذي يفسر ظاهرة الـديجافو والذي أثبتناه شخصياً وأبحث في جوانبه والمدعوم بالأدلة المختبرية والمشاهدات أوجزه بما يلي: تحصل في دماغ الإنسان إفراغات لشحن كهربائية تتباين في مقدارها وشدتها من شخص لآخر على نحو طبيعي وبوجود محفز أو بدونه وإن كان ذلك بشكل مقنن أو محدود. هذه الإفراغات الكهربائية إن زادت عن مستواها الطبيعي المعلوم تصبح حالة غير طبيعية أو مرضية كما هو الحال عند مرضى الصرع أو في حالة استخدام نوع خاص من الأدوية المحفزة. قد يصاحب انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ بعض الظواهر غير الطبيعية كالحركات الإرادية في أعضاء الجسم أو حالة إرباك مؤقت في الدماغ خصوصاً في مراكز الذاكرة قد يؤدي

التفسير العلمي الذي يفسر ظاهرة الـديجافو والذي أثبتناه شخصياً وأبحث في جوانبه والمدعوم بالأدلة المختبرية والمشاهدات أوجزه بما يلي: تحصل في دماغ الإنسان إفراغات لشحن كهربائية تتباين في مقدارها وشدتها من شخص لآخر على نحو طبيعي وبوجود محفز أو بدونه وإن كان ذلك بشكل مقنن أو محدود.

إلى النسيان المؤقت لحوادث قديمة أو حديثة. على أساس هذه الحقائق العلمية نستطيع تفسير ميكانيكية ظاهرة الـديجافو وعلى ضوء المثال المطروح كما يلي: يسافر أحد السواح إلى مدينة باريس عاصمة فرنسا لأول مرة ويزور متحف اللوفر فيها وأثناء تجواله في المتحف يخالجه شعور غريب وأكد بأنه قد شاهد هذا المتحف سابقاً ولكنه لا يعلم كيف ومتى؟.

تفسير ما حصل وحسب نظرية الشحنات الكهربائية سيكون حسب التسلسل الزمني التالي: يشاهد السائح قاعة فيها رسوم مهمة لفنانين كبار في متحف اللوفر تثير انتباهه واهتمامه وتمس مشاعره، يحصل تحفيز وانبعاث لشحنات كهربائية في الدماغ، يليه إرباك في الدماغ وعلى وجه التحديد في مركز الذاكرة القصيرة المؤقتة للأحداث القريبة، يخزن الدماغ ما قد شاهده السائح قبل عملية الانبعاث الكهربائي، يعود السائح لحالته الطبيعية بعد انتهاء انبعاث الشحنات الكهربائية، يرى قاعة المتحف والرسوم مرة أخرى ويكون قد نسى ما شاهده من قبل بسبب الإرباك الحاصل في الذاكرة، يستحضر الدماغ المعلومة المخزونة منذ لحظات، وهكذا يشعر السائح بأنه يشاهد هذه القاعة مرة ثانية ولكنه لا يدري متى رآها من قبل! هذه العملية ورغم طول أحداثها تحصل في غضون ثوانٍ قليلة جداً.

هذا التصور تدعمه الحقائق العلمية التالية: أولاً: تتكرر حالة الـديجافو عند الأشخاص الذين تنشط أدمغتهم بحركة الشحنات الكهربائية وتندر أو تعدم عند الأشخاص الذين تشح أو تقل انبعاثات الشحنات الكهربائية في أدمغتهم. كما أن هذه الظاهرة قد لا تحتاج إلى مؤثرات وحوافر لحدوثها عند من تنشط في دماغه انبعاثات الشحنات الكهربائية أي ليس من الضروري حصول شد عاطفي وانفعال كمحفز لحدوث هذه الظاهرة.

ثانياً: مرضى الصرع وخصوصاً صرع الفص الصدغي

تتناهم ظاهرة الـديجافو بشكل متكرر يتناسب مع كثافة الشحن الكهربائية المنبعثة في أدمغتهم، وهذا دليل على عمق الصلة بين ظاهرة الـديجافو وانبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ.

ثالثاً: المرضى الذين يستخدمون بعض الأدوية المحفزة لنشاط الشحنات الكهربائية الدماغية تتناهم هذه الظاهرة وقت استخدام هذه الأدوية وتزول بالتوقف عن تناول الأدوية المحفزة. من الأدوية التي تحفز ظهور ظاهرة الـديجافو والتي تحفز بدورها انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ هي دواء الـ "أمنتادين Amantadine" ودواء الـ "فينايل بروبيلامين Phenypropanolamine"، وأخذ هذين الدوائين ممّا يزيد من انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ ويزيد من حصول ظاهرة الـديجافو.

رابعاً: نسبة حدوث ظاهرة الـ "ديجافو" تزداد في مرحلة العمر المحصورة بين 15 إلى 25 سنة وهي الفترة التي تكون فيها انبعاثات الشحنات الكهربائية في الدماغ على أوجها لوجود المحفزات العاطفية والانفعالية التي تزداد ذروتها في هذه المرحلة من العمر.

خامساً: بنفس هذا السياق وبنفس هذه الميكانيكية تقسر الظاهرة الأخرى والتي هي أقل انتشاراً والتي تسمى بالـ "جامه فو J'ama vu" وهو مصطلح يعني باللغة الفرنسية "لم أر هذا من قبل" أي أن المرء يكون أمام موقف أو حالة أو مكان أو شخص معروف ومعلوم لديه غير أنه يشعر وكأنه يراه لأول مرة! على سبيل المثال وليس الحصر، يتحدث شخص ما مع أبيه أو أخيه فتنتابه على حين غرة لحظات من الشعور الغريب توحى له بأن الشخص الذي يتحدث إليه غريب عليه لا يعرفه ولم يره قط من قبل، حيث يستمر هذا الشعور للحظات قليلة جداً لا تتجاوز الثواني ثم ينتهي. ميكانيكية حصول هذه الحالة، في نظري، مشابه تماماً لميكانيكية حصول ظاهرة الـديجافو أي حصول خلل وفتي وسريع في الذاكرة تحت تأثير الانبعاثات الكهربائية في الدماغ. الاختلاف بين الحالتين يكمن فقط في أن انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ في الـ "جامه فو" تتركز في الذاكرة بنوعيه الطويل والقصير بشكل مؤقت حيث ينسى الإنسان كل شيء يتعلق بالماضي البعيد والحاضر القريب أي أن انغلاق الذاكرة المؤقت يكون كلياً وهكذا ينسى المرء أباه وأخاه ولكن لحسن الحظ للحظات قصيرة جداً لا تعدى الثواني.

بوجود هذه الحقائق العلمية الواضحة وبوجود هذه الصلة الصريحة والمضطردة بين انبعاث شحنات الدماغ الكهربائية المؤثرة على مراكز الذاكرة وبين تكرار حصول هاتين الظاهرتين، قد نجد أنفسنا على مشارف عين الحقيقة في تفسير ميكانيكية حصول ظاهرة الـ "ديجافو" أو (رأيت هذا من قبل) وظاهرة الـ "جامه فو" أو (لم أر هذا من قبل). ربما يتحمل هذا التفسير الثقة في معرفة ميكانيكية هاتين الظاهرتين أكثر مما تتحملة التفسير الأخرى وأن صدرت عن فطاحل فلاسفة علم النفس أمثال أميل بواريك وسيجموند فرويد!.